ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 28 ديسمبر 2021

# نشأة الهرمينوطيقا

فلهلم ديلتاي
ترجمة: فتحي إنقزو

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة ©2021
All rights reserved © 2021

# نشأة الهرمينوطيقا[1]

**فلهلم ديلتاي**[2]

ترجمة: **فتحي إنقزو**[3]

1- Wilhelm Dilthey, «Die Entstehung der Hermeneutik», in B. Erdmann et al., Philosophische Abhandlungen. Christoph Sigwart zu seinem siebzigsten Geburtstage 28. März 1900 gewidmet, Tübingen-Freiburg-Leipzig, J.C.B. Mohr (Paul Siebeck), 1900, SS. 185-202; rep. in Gesammelte Schriften, Bd. V, hrsg., G. Misch, 1957, 1990[8], SS. 317-338

2- مجلة تأويليات العدد2

3- جامعة تونس.

[317] لقد نظرنا في مقالة سابقة[4]* في تصوير التشخّص في العالم البشري مثلما يعرضه الفنّ، ولا سيما الأدب. أما في هذا المقام، فإنّا سنتولّى بسط مسألة المعرفة **العلميّة** بالأفراد، إلى حدّ الأشكال الكبرى للوجود البشري الفردي عامةً. فهل مثلُ هذه المعرفة أمرٌ ممكنٌ؟ وما هي الوسائل الكفيلة ببلوغها؟

إنّ هذه مسألةٌ ذات أهمية بالغة. ففعلُنا يفترض دوماً فهماً لأشخاص آخرين؛ وإنّ قسماً لا يستهان به من سعادة الإنسان إنما يتأتّى من استشعار أحوال نفسيّة غريبة. وأمّا العلمان الفيلولوجي والتاريخي فيقومان على الافتراض الذي مفاده أنّ استدراك المفرد بالفهم[5] بإمكانه أن يكتسب الموضوعيّة [التي تنبغي له]. كما أنّ الوعي التاريخي يمكّن الإنسان الحديث من أن يستحضر في نفسه ماضي الإنسانية بكلّيته: إذ يجعله يجتاز حدود زمانه الخاصّ وينفذ ببصره إلى الثقافات السّالفة؛ وهو يغنم منها القوة لنفسه ويبتهج لسحرها؛ الأمر الذي يزيد من سعادته زيادةً كبرى. وإذا كانت علوم الرّوح النسقية تستمدّ العلاقات القانونية العامّة والمجامع الشموليّة من هذا التصوّر الموضوعيّ للمفرد، فإنها أحرى أن تجد لها قاعدةً في سيرورات الفهم والتأويل. كذلك اليقين الذي لهذه العلوم، مثل ذاك الذي للتاريخ، مشروطٌ بأمر مفاده أن فهم المفرد بالإمكان رفعه إلى رتبة **الصلاحيّة الكليّة**. ونحن إنّما نلاقي على مشارف علوم الرّوح مشكلاً يخصّها ويفرّق بينها وبين معرفة الطّبيعة.

والحقّ أنّ هذه العلوم تستأثر بالنّظر إلى كلّ معرفة بالطّبيعة بالفضل لموضوعها الذي ليس ظاهرةً معطاةً للحواسّ، ولا مجرّد انعكاس لوجودٍ فعليٍّ في الوعي، وإنّما [318] هو الوجودُ الفعليُّ عينه المباشر والحميم، الذي يكون في مساق معيش باطنيٍّ. ومع ذلك فإنّ النّحو، الذي يُعطى به هذا الوجود الفعليّ في التّجربة الباطنيّة، يفضي إلى مصاعب شديدة بخصوص تصوّره الموضوعيّ. وليس لنا أن نقف عندها في هذا المقام. على أنّ التّجربة الباطنيّة، التي أدركُ بها أحوالي الذّاتيّة، ليس في مقدورها وحدها أن تجعل لي وعياً بفرديّتي الخاصّة. فإنّه لدى مقارنة إنّيتي[6] بالآخرين، تحصل لي تجربة بما هو فرديٌّ في نفسي؛ حينها فقط أعي ما هو في كياني الأخصّ مباينٌ للغير، ولم يكن غوته (Gœthe) لينطق بغير الحقّ حينما قال إنّ هذه التّجربة المهمّة من بين تجاربنا جميعاً شديدة العُسر وإنّ ما يخطر ببالنا عن مقدار قوّتنا وطبيعتها وحدودها يبقى منقوصاً على الدّوام. أمّا الكيان الغريب فلا يُعطى إلينا ابتداءً إلا من خارج، من وقائع الحسّ، والإشارات، والأصوات، والأفعال. ففي سيرورة إعادة البناء[7] فقط، تلك التي تتعلق ببعض العلامات التي تقع تحت طائلة حواسنا، يتم الإقبال على الباطن. كلّ شيءٍ: من المادة، والبنية، وأكثر السمات فرديةً، يتعيّنُ

4- Sitzungsberichte d. k. Ak. D. Wiss. Z. Berlin 5. März 1896, S. 295 ff. [«Über vergleichende Psychologie: Beiträge zum Studium der Individualität (1895-96)», GS V, 273 ff.]

5- Nachverständnis.

6- Selbst.

7- Nachbildung.

نقلُه من عنفوان حياتنا[8] بالذّات. ولكن كيف لوعي متشكّلٍ متشخّص أن يرفع فردانيةً مختلفةً كلّ الاختلاف إلى رتبة المعرفة الموضوعيّة؟ ما هي هذه السيرورة التي تبدو غريبةً تماماً عن سائر مسالك المعرفة؟

ونحنُ إنّما نسمّي هذه السيرورة، التي ندرك من خلالها باطناً انطلاقاً من علامات معطاة إلينا من الخارج بطريق الحسّ: **فهماً**[9]. أمّا استخدام اللغة، وكذا الاصطلاح النفسيّ المحكم الذي نحتاج إليه أيّما احتياج، فلا يستقيم أمره إلا إذا احتفظ المؤلّفون على سبيل التّواتر بالعبارات كافّةً المعتمدة من قبلُ بإحكام، والمقيّدة بنحو واضح ومفيد. إنّ فهم الطّبيعة -وتأويلها (interpretatio naturæ)- هو تعبيرٌ مجازيٌّ. ولكنّا نسمي أيضاً، وإن بنحو غير دقيق، فهماً تصوّر[10] حالاتنا الخاصّة. فأنا أقول مثلاً: إنّي لا أفهم لِمَ فعلتُ ما فعلتُ، وكذلك: إنّي لم أعُدْ أفهمُ نفسي. وأنا أقصدُ بذلك أنّ من تجلّيات نفسي التي هي منخرطةٌ في عالم الحسّ ما يبدو أنّه آتٍ من غريبٍ، وأنّي غير قادر على أن أتأوّله من حيث هو كذلك، أو في الحالة الثّانية، أنّي صرتُ إلى شأن أراه كأنّه غريبٌ. فلذلك نسمّي فهماً السّيرورة التي ندركُ بها أمراً نفسيّاً بواسطة علاماتٍ محسوسةٍ هي تعبيرٌ[11] عنها.

هذا الفهمُ يبتدئ من إدراك تلعثمات الأطفال حتى **هاملت** أو **نقد العقل المحض**. فمن الحجارة والرخام، والنّبرات الموسيقيّة، والإشارات، والكلمات والكتابة، من [319] الأفعال، والتنظيمات الاقتصاديّة والدّساتير، ينطق الرّوح البشري بعينه مخاطباً إيّانا، طالباً التّأويل. ولمّا كانت سيرورة الفهم مقيّدةً بالشّرائط والمصادر المشتركة لهذا الضّرب من المعرفة، كانت لها حيثما وجدتَها آياتٌ مشتركةٌ بينها. وهي بعينها من جهة هذه السّمات الكبرى. فإن شئتُ مثلاً أن أفهم ليوناردو دا فنشي (Leonardo da Vinci)، تعين عليّ أن أنكبّ على تأويل أفعال، ولوحات، وصور، وآثار مكتوبة مجتمعةً، وذلك في سيرورة متجانسة وموحّدة.

إنّ للفهم مراتب متباينة. وهي مرتبطةٌ بادئ الأمر بالعناية[12]. فإن كانت هذه الأخيرة محدودةً، كان الفهم مثلها. فبأيّ صبر فارغ كنا نستمع إلى شرح، فلا نحتفظ منه بغير نُتفة لها عندنا من المنفعة العمليّة ما لها، ولا نلقي بالاً للحياة الباطنيّة للمتحدّث. والأمر على خلاف ذلك في حالات أخرى، إذ نتنبّه لأدنى إيماءةٍ، وأدنى كلمةٍ من شأنها أن تنفذ بنا إلى باطن المتحدّث. ولكنّ الانتباه الأشدّ نفسه لا يمكن له أن يصير تمشّياً صناعيّاً، يؤمّن مقداراً مضبوطاً من الموضوعيّة إلا حينما يكون التّعبير عن الحياة[13] مثبتاً، ويكون بإمكاننا أن نرجع

---

8- Lebendigkeit.

9- *Verstehen.*

10- Auffassen.

11- Äusserung.

12- Interesse.

13- Lebensäusserung.

إليه متى شئنا. مثلُ هذا **الفهم الصّناعي لتعبيرات الحياة المثبتة بنحو دائم نسمّيه شرحاً أو تأويلاً**[14]. بهذا المعنى أيضاً، يوجد فنٌّ للتأويل[15]، موضوعاتُه التّماثيل المنحوتة واللوحات المرسومة. وقد كان فريدريش أوغست فولف (Friedrich August Wolf) قد طالب بهرمينوطيقا وبنقد أركيولوجيين. وقد دافع عن ذلك فالكر (Welcker)، واجتهد برالر (Preller) لتحقيقهما، وهو الذي أكد من قبلُ أن مثل هذا التأويل لآثار صامتة يتعين عليه حيثما وُجد أن يستعين بتفسير مستمدٍّ من الأدب.

إنّ الدلالة البالغة للأدب من أجل فهم الحياة الروحية والتاريخ، إنما تكمن حقّاً في كون باطن الإنسان لا يجد تعبيره التام، الوافي والمعقول موضوعيّاً إلا في اللغة. بهذه الصّورة، يدور فنّ الفهم على شرح أو **تأويل ما حفظته الكتابة من معالم الوجود البشريّ**.

إنّ تأويل هذه المعالم والعمل النقديّ الذي لا ينفصل عنها قد كانا، من بعد ذلك، منطلق **الفيلولوجيا**. وهذه في جوهرها هي الفنّ **الشّخصيّ والمهارة المطلوبان في مثل هذا العمل على المعالم المكتوبة**، وبواسطة هذا الفنّ فقط وبنتائجه يمكن لأيّ تأويل آخر لمعالم أو لأعمال منقولة تاريخيّاً أن ينمو ويزداد. ونحن يمكن لنا أن نخطئ بخصوص دوافع التصرف لأشخاص فاعلين في التاريخ، [320] وأنّ الأشخاص الفاعلين على مرأى منا يمكن لهم أن يخدعونا بخصوص دوافعهم. ولكنّ أثر كاتب أو مكتشف عظيم، جهبذ ديني أو فيلسوف أصيل، لا يمكن له أن يكون غير تعبير صادق عن حياته النّفسيّة؛ ففي مجتمعنا البشريّ الذي يسوده الكذب، يكون أثرٌ من هذا الضّرب حقيقاً على الدّوام، وأنّه، على خلاف سائر التّعابير ذات العلامات المثبتة، الجديرة لذاتها بتأويل تامٍّ وموضوعيٍّ، هو نفسه الذي يُلقي بنوره على سائر المعالم الفنّية لعصر من العصور وللأعمال التاريخيّة لأهل ذلك العصر.

غير أنّ فنّ التّأويل هذا قد تطوّر شيئاً فشيئاً، بتواتر وبطء، شأن نظيره الذي يعتني بمساءلة الطّبيعة مثلاً بطريق التجربة. ولقد نشأ واستمرّ من الموهبة الشخصية العبقرية للفيلولوجي. وانتقل خصوصاً وبحسب طبيعته بواسطة الاتّصال الشّخصيّ بكبار الموهوبين في مجال الشّرح أو بآثارهم. على أنّ كلّ صناعة إنّما تستهدي **بقواعد**؛ وهي التي تُعلّم [المرء] كيف يجتاز المصاعب، وتحفظ حصيلة الفنّ الشخصيّ. كذلك فنّ الشّرح قد أمكن له أن يصوغ **بسطاً لقواعده**. إنّ نزاع هذه القواعد، والصّراع بين مختلف الاتّجاهات بخصوص شرح الأعمال الحيويّة المهمّة، وما لزم عن ذلك من حاجة إلى تأسيس هذه القواعد، كلّ ذلك نشأ منه العلم التأويلي. إنّه **فنّ شرح المعالم المكتوبة**.

14- *Auslegung oder Interpretation.*

15- Auslegungskunst.

إنّ الاستناد إلى تحليل للفهم، لتحصيل إمكان تأويل ذي صلاحية كلّية، جعل هذا العلم يتأدّى في نهاية المطاف إلى فضّ **المشكل الأعمّ** الذي ابتدأ به تحقيقنا؛ فتحليلُ التجربة الباطنيّة يضاف إليه تحليل الفهم، وكلاهما مجتمعيْن يوفّر لعلوم الروح الدليل على **إمكان** وعلى **حدود** معرفة ذات صلاحية كلية مادامت محددةً بالنحو الذي تردُ به الوقائع النفسيّة إلينا بطريقةٍ أصليّةٍ.

وإني أودّ أن أبيّن في هذا المقام المسار المتواتر في التّاريخ للهرمينوطيقا. كيف نشأت من الحاجة إلى فهم عميق وصالح بالكلية الموهبةُ الفيلولوجيّة، ومنها استُخلصت القواعد، وتمّ ترتيبها لغايةٍ محدّدةٍ بحالة العلم في زمن بعينه، حتّى تناهى تحليل الفهم إلى إيجاد منطلق متين لهذه القواعد.

**.1**

[321] لقد وُلد التأويل الفنّي eJrmhneiva للشعراء لدى الإغريق من حاجات التعليم. أما المبارزات اللامعة المرافقة لتأويل هوميروس (Homer) ونقده، وكذا سائر الشعراء، فقد كانت سوقها نافقة في البلاد الناطقة باللّسان الإغريقي وفي عصر التّنوير الإغريقي. فهذا التّأويل اكتسب قاعدةً أمتن باتصاله بالبلاغة لدى السفسطائيين والمدارس البلاغية. وقد وجد فيها، مطبقةً على الفصاحة، نظريّةً عامّةً في التّأليف الأدبيّ. أمّا أرسطو (Aristoteles)، هذا المصنّف الكبير والمحلّل للعالم العضويّ، وللدول، وللإنشاءات الأدبيّة، فقد دعا في كتاب **الخطابة** إلى تفكيك العمل الأدبي إلى أجزائه، والتمييز بين أشكال الأسلوب، والإقرار بأثر الإيقاع، والدور والمجاز. وإن العناصر الفاعلة في الخطاب كالمثال والضّمير، والمَثَل، والسخرية، والاستعارة، ومقابل الوضع، إنما هي معروضةٌ بتحديداتٍ مفهوميّةٍ أبسط في كتاب **الخطابة إلى الإسكندر**. وأمّا كتابُ **الشّعر** فغرضُه الصّريح إنّما هو الشّكل الدّاخلي والخارجي للشعر ولأجناسه، الحاصلة من تحديد ماهيّتة أو غايته، والعناصر الفاعلة التي تدخل في تشكيل أغراضه.

عرف فنّ التأويل وقواعده طوراً ثانياً ومهمّاً مع الفيلولوجيا الإسكندريّة. فالتّراث الأدبي للإغريق تم تجميعه في مكتباتٍ. أمّا النّصوص فصارت موضع مراجعات حيث سُجّل محصول العمل النّقدي بفضل نظام دقيق من علامات التحقيق. والكتاباتُ المنحولة استبعدت واعتُمدت سجلات لكلّ الرصيد الموجود. إن الفيلولوجيا من حيث هي فنّ تحقيق النصوص ونقدها وتأويلها وتقدير قيمتها، اعتماداً على فهم عميق للغة، قد صارت قائمة الذّات: ولعلها واحدة من آخر إبداعات الروح الإغريقي وأكثرها أصالة؛ والذي من بين دوافعه القوية منذ هوميروس لذة الإنصات إلى أحاديث النّاس. كذلك ابتدأ الفيلولوجيون الإسكندريون يدركون القواعد، تلك التي هي متضمنّةٌ في صناعتهم العبقريّة. فقد أدرك أرسطرخس (Aristarch) من قبلُ أنه يتعين تحقيق نصوص هوميروس وتفسيرها اعتماداً على دراسة محكمة وشاملة للاستخدام الهومري للغة. أمّا هيبارخس (Hipparch) فقد أقام بوعي تامّ التأويل الموضوعي على فحص أدبي ونقدي، مشيراً إلى مصادر قصيدة

"الظاهرات" لآراتوس (Aratos) التي تأولها بناءً عليها. ولمّا كانت بعض الأشعار المنسوبة إلى هزيودس (Hesiod) قد تمّ التّحقّق من كذبها، وكان حُذف من ملحميّات [322] هوميروس قسطٌ عظيمٌ من الأبيات، والنّشيد الأخير من الإلياذه قد عُدّ راجعاً إلى زمن متأخر، فضلاً عما حصل الإجماع عليه [للسبب نفسه] بخصوص جزءٍ من النشيد قبل الأخير وكامل النشيد الأخير من الأوذسه: فقد حصل ذلك بفضل مراس بارع بمبدأ التماثل، بمقتضاه يُصار إلى إنشاء ضرب من قانون لاستخدام اللغة، للأفق الذهني، للمطابقة الداخلية وللقيمة الجمالية لقصيدة مّا، ولاستبعاد ما يخالفها. إن تطبيق مثل هذا القانون الجماليّ-الأخلاقيّ عند زينودوتس (Zenodot) وأرسطرخس إنّما يصدر بوضوح تامّ عن نمط التّأسيس الذي اعتمداه بشأن الـ :Atethesen dia; to; ajprepevõ [لكونه غير لائق]، أي [إن ظهر أنّ أمراً مّا غير لائق بكرامة الأبطال أو الأرباب] «decere videbatur si quid heroum vel deorum gravitatem minus». لقد كان أرسطرخس، إلى ذلك، يعلن انتسابه إلى أرسطو.

إنّ الوعي المنهجيّ بالطريقة المثلى للتأويل قد اشتدّ في مدرسة الإسكندريّة من خلال النّزاع مع فيلولوجيا فرغانة. وهو نزاعٌ مطبوعٌ بتوجهاتٍ هرمينوطيقيّةٍ كانت له دلالته بالنّظر إلى التاريخ العالمي! ذلك أنه سيعاود الظهور في اللاهوت المسيحيّ في وضع جديد، ولسوف ترتبط به رؤيتان تاريخيّتان للشّعراء وللمؤلّفين الدّينيين.

أمّا أقراطس المالوسي (Krates von Mallos) فقد نقل من المدرسة الرواقيّة إلى فيلولوجيا فرغانة مبدأ التأويل المثليّ. ذلك أنّ القوة التي انطوت عليها هذه الطريقة في الشرح لوقت طويل تكمن في بادئ الأمر في تعديل التناقض القائم بين الوثائق الدينية الأولى وبين رؤية بائنة للعالم. ولعله لذلك كان [هذا المبدأ] لمفسّري الفيدا، وهوميروس، والكتاب المقدس، والقرآن ضروريّاً: فنٌّ لا استغناء عنه ولا لزوم. ومع ذلك فقد كان لهذه الطريقة أساسٌ في الرؤية العميقة للإنشائيّة الشعريّة والدّينيّة. فهوميروس من الرّائين[16] ()، والتناقض القائم لديه بين الرؤى العميقة وبين التّصوّرات الحسّية الغليظة لا يمكن تفسيره إلا متى تصوّرنا هذه الأخيرة من حيث هي مجرّد وسائل تعبير شعريّة فحسب. ولكنّا متى فهمنا هذه العلاقة على أنها تنميقٌ مقصودٌ لمعنى روحانيٍّ بالصّور، صارت نشأةُ التأويل المَثَليّ[17] أمراً مقضيّاً.

**.2**

ولعلّي لا أخطئ المقصود إن قلت إنّ هذا التّعارض يعاود الظّهور في ظروفٍ مختلفةٍ، لدى النّزاع بين المدارس اللاهوتية **للإسكندريّة** و**لأنطاكية**. لقد كان الأساس المشترك بينها يقضي بطبيعة الحال بأنّ الصّلة

16- ein Seher.

17- allegorische Interpretation.

الباطنيّة التي تجمع بين النّبوءة وبين أداء الأمانة تربط بين العهدين القديم والجديد. ذلك أنّ مثل هذا الرّبط قد كان لازماً من قِبَل ما وقع من توسّل للنبوءات والأمثال في العهد [323] الجديد. بناءً على هذا الافتراض، اتخذت الكنيسة المسيحيّة موقفاً معقّداً إزاء خصومها فيما يتعلق بشرح كتبها المقدّسة. فقد أبدت حاجتها، ضدّ اليهود، للتّأويل المَثليّ من أجل إدراج لاهوت الكلمة[18] في العهد القديم؛ وأمّا ضدّ الغنوصيين، فقد اضطرّت إلى الدّفاع عن نفسها من تطبيق شديد التوسّع للمنهج المَثَليّ. على خُطا فيلون (Philon)، سعى يوستينوس (Justin) وإيرينيوس (Irenäos) إلى وضع قواعد لرسم حدود المنهج المثليّ وضبط استخدامه. ولقد عمل ترتوليانوس (Tertullian)، في هذا الصراع ضد اليهود والغنوصيين، على اتباع طريقة يوستينوس وإيرينيوس، ولكنّه طوّر من جانب آخر قواعد مثمرة لفنٍّ تأويليٍّ أجود، لم يكن ليبقى هو نفسه وفيّاً له فيما بعدُ. أمّا في الكنيسة اليونانيّة فقد اتّخذ هذا التّعارض صيغةً مبدئيّةً. فمدرسة أنطاكية لم تكن لتفسّر نصوصها بغير المبادئ التاريخيّة النّحويّة. بهذه المثابة كان ثيودور الأنطاكي (Antiochener Theodoros) لا يرى في نشيد الأنشاد غير ترانيم أعراس، وفي سفر أيّوب غير تصوير شعريٍّ لمأثورٍ تاريخيٍّ. لقد رفض عناوين المزامير، وأنكر أن يكون العدد الأكبر من النبوءات المسيحانيّة ذا علاقةٍ مباشرةٍ بالمسيح. لم يكن ليقبل بثنائيّة المعنى في النّصوص، وإنما بالترابط الأعلى بين الحوادث فحسب. أمّا فيلون، كليمنس (Clemens) وأوريجانوس (Origenes)، فقد كانوا يميّزون في صلب النّصوص عينها بين معنى روحانيٍّ ومعنى حقيقيٍّ. بيد أنّ تطوّر فنّ التأويل إلى هرمينوطيقا، حيث يقع رفع هذه الأخيرة إلى الوعي العلمي، وحيث تنشأ من هذا النّزاع النّظريّات التّطبيقية الهرمينوطيقية الأولى، التي تناهت إلى علمنا، قد شكّل خطوة أكبر. لقد كان فيلون يرى من قبلُ أنّه توجد [قواعد] kanovneõ و[قوانين لأمثال] õajllhgorivaõ`th novmoi جرى تطبيقها في العهد القديم، وأنّه على العلم بها يلزم أن يقوم عماد تأويله. أما أوريجانوس، في الباب الرابع من كتابه [في المبادئ] ajrcw`n perij، وأغسطينوس في الباب الثالث من كتاب (تعاليم المسيحية) (de doctrina christiana)، فقد أقاما نظريّةً هرمينوطيقيّةً ذات تأليف جامع. وقد عُورضت [هذه الأعمال] بعد ذلك بأثرين هرمينوطيقيين من مدرسة أنطاكية مفقودين للأسف، ديودوروس (Diodoros): [في الفرق بين النظر والأمثولة] tivõ dijorav qewrivaõ kai; ajllegorivaiõ وثيودوروس: [في الأمثولة والحكاية ضد أوريجانس] Origenem de allegoria et historia contra

**.3**

منذ عصر الإحياء، انتقل التأويل ونظام قواعده إلى طور جديد. كان الانقطاع قائماً عن العصر القديم الكلاسيكيّ والمسيحيّ من خلال اللغة، وظروف الحياة والقومية. [324] وإذاً، فقد صار التأويل حينئذٍ، على

18- Logos-Theologie.

غير الحال الذي كان في روما من قبلُ، انتقالاً[19] إلى حياةٍ روحيّةٍ غريبةٍ بتوسّط دراساتٍ لسانيّةٍ، ماديّةٍ[20] وتاريخيّةٍ. وهذه الفيلولوجيا الجديدة، التّحصيليّة والنّقدية، كان عليها أن تعمل، في غالب الأحيان، على مجرّد أخبار وشذرات. ولذا كان عليها أن تكون خلاّقةً وبنّاءةً على نمطٍ جديدٍ. فكذلك أمكن للفيلولوجيا، للهرمينوطيقا وللنقد أن تبلغ مرتبةً عليا. وقد غنمنا من القرون الأربعة الموالية أدبيّاتٍ تأويليّةٍ غزيرةٍ. منها انبثق تيّاران اثنان: ذلك أنّ النّصوص الكلاسيكيّة والكتابيّة كانت تمثّل قوّتين كبيرتين، مع سعي لامتلاكها. أمّا منظومة القواعد الفيلولوجيّة الكلاسيكيّة فقد كانت تسمّى [فنّ النقد] ars critica. إنّ أعمالاً من هذا الصّنف، تميّزت منها أعمال شيوبيوس (Scioppius)، وكليريكوس (Clericus)، والعمل المنقوص لفاليزيوس (Valesius)، قد كانت تضع في أجزائها الأولى نظريّةً في الصّناعة الهرمينوطيقيّة. وكثيرٌ من الرّسائل والمقدّمات كانت تتناول [**القول في العبارة**] (*de interpretatione*). ولكنّ التّشكيل النّهائي للهرمينوطيقا ندين به إلى التأويل الكتابيّ. أمّا الأثر الأوّل الأهمّ، إن لم يكن الأعمق من هذه الآثار، فهو كتاب المفتاح (clavis) لفلاكيوس (1567) (Flacius).

للمرة الأولى، جُمعت حصيلة قواعد التأويل المكتشفة إلى هذا الحدّ في متن تعليميٍّ، وذلك بواسطة **المصادرة** التي بمقتضاها يمكن بطريقةٍ صناعيّةٍ أن نبلغ، اعتماداً على هذه المبادئ، فهماً ذا صلاحيّة عامّةٍ. من وجهة النظر المبدئية هذه، التي تهيمن على الهرمينوطيقا بمقتضى الحال، بلغ فلاكيوس الوعي بنزاعات القرن السادس عشر. وقد كان عليه أن يحارب على جبهتين. أتباع تجديد العماد[21] والكاثوليكيّة المجدَّدة سواء بسواء من الذين كانوا يقرّون بغموض الكتب المقدّسة. بمعارضةٍ لكلا الفريقين، عمل فلاكيوس على الاستفادة من شرح كالفن (Calvin)، الذي اعتاد الرجوع من التفسير إلى المبادئ الكبرى التي يقوم عليها. لقد كانت أكثر الشؤون استعجالاً عند لوثريٍّ من ذلك الزمان هي دحض المذهب الكاثوليكي بخصوص التقليد الذي صيغ في وقتها صياغةً جديدةً. إنّ حقّ التّقليد في تحديد تأويل الكتاب لم يكن من الممكن أن يقام، لدى الخلاف مع المبدأ الكتابي البروتستانتي، إلا بتبيان استحالة استخلاص تأويل كافٍ ذي صلاحيّةٍ كلّيةٍ من الكتب المقدّسة نفسها. أمّا مجمع ترنت، الذي انتصب من عام 1545 إلى 1563، فقد انشغل بهذه المسائل انطلاقاً من دورته الرّابعة، وفي عام 1564 ظهرت النّشرة الأصليّة الأولى لهذه المراسيم. لقد كان بيلارمين (Bellarmin)، ممثّل الكاثوليكيّة الثلاثينية، هو الذي تولّى في وقت لاحق، وبعد بضع سنين من عمل فلاكيوس، في نصٍّ جداليٍّ يرجع إلى سنة 1581، محاربة معقوليّة الكتاب، بجودة قريحةٍ فائقةٍ، وهو الذي سعى إلى الاستدلال على ضرورة استكماله بالمأثور. على صلةٍ بهذه [325] المنازعات، بادر فلاكيوس إلى تقديم البرهان الهرمينوطيقيّ على إمكان تأويل له صلاحيّةٌ كليّةٌ. وفي منازلته مع هذه المشكلة، بلغ الوعي

19- Versetzung.

20- sachliche.

21- Wiedertäufer.

بأنّه ثمّة لحلها وسائل وقواعد لم تبلغها أيّة هرمينوطيقا قبله. أمّا حينما يواجه الشّارح مصاعب في نصّه، فإنّه يجد بين يديه وسيلةً من ضرب رفيع: ائتلاف الكتب المقدّسة في الدّيانة المسيحيّة الحيّة. فإن نحن نقلنا هذا النّمط الإيقانيّ من التّفكير إلى نمط تفكيرنا، لم يبقَ من القيمة الهرمينوطيقيّة للتّجربة الدّينية غير حالةٍ خاصّةٍ من المبدأ الذي بمقتضاه في كلّ طريقةٍ للتّأويل، يكون التّفسير[22] المشتقّ من مجموع عيانيٍّ مجرّدٍ عاملاً له. غير أنّه إلى جانب هذا المبدأ التّفسيريّ، ثمّة مبادئ أخرى مرافقةٌ له هي مبادئ معقولةٌ. وأوّلها مبدأ التّأويل اللسانيّ[23]. على أنّ فلاكيوس قد كان أوّل من أقرّ، زيادةً على المبدأ المذكور، بأهمّية المبدأ النفسي[24] أو الفنّي[25] للتفسير، الذي يقضي بتأويل كلّ مقطع جزئيٍّ بالقياس إلى القصد وإلى تأليف الأثر برمّته. وهو أيضاً أوّل من استفاد بسبيل منهجيّة لأجل هذا التّأويل الفنّي، من المعارف البلاغيّة التي تخصّ الجمع الباطنيّ لإنشاءٍ أدبيٍّ بعينه، وتأليفه وسائر العناصر الفاعلة فيه. أمّا تحويل البلاغة الأرسطيّة من جانب ميلانشتون (Melanchton) فقد مهّد له السّبيل. كان فلاكيوس نفسه مدركاً أنّه من السّابقين إلى الاستخدام المنهجيّ للوسيلة التي تتيح له تحديداً واضحاً لموضع من المواضع، وكذا للمصادر المتضمَّنة في السّياق، وفي الغرض، وفي التناسب والتلاؤم الذي بين مختلف الأجزاء أو المفاصل. وقد أدرج القيمة الهرمينوطيقيّة التي لها تحت وجهة النظر العامة لفقه المنهج. "في غير موضع أيضاً، صارت مختلف أجزاء الكل تُفهم في علاقتها بهذا الكلّ وبسائر الأجزاء التي ينطوي عليها". أما هذا الشكلُ الباطنيُّ لأثرٍ مّا، فقد تقصّاه إلى حدّ الأسلوب الذي يختصّ به وسائر العناصر الفاعلة فيه، واشتغل على الخصائص الأسلوبية الدقيقة لدى القدّيس بولس والقدّيس يوحنا. لقد كان ذلك تقدّماً عظيماً، وإن لم يخرج، بطبيعة الحال، عن حدود التّصوّر البلاغي. كلّ مكتوبٍ، لدى ميلانشتون وفلاكيوس، إنّما هو حاصلٌ عن قواعدَ، وينبغي أن يُفهم طبقاً للقواعد. مَثَله كمَثَل آليٍّ[26] منطقيٍّ مُوشّى بحلية الأسلوب والصّور ومحسّنات القول.

فأمّا النّقائص الصّورية في عمل فلاكيوس فقد تجاوزتها هرمينوطيقا باومغارتن (Baumgarten)، التي عرفت حركةً ثانيةً هرمينوطيقيّةً لاهوتيّةً كبرى. ففي كتابه [**مقابساتٌ من مكتبةٍ في هالّه**] (Nachrichten von einer hallischen Bibliothek) بدأ يظهر في الأفق الألماني، [326] إلى جانب المفسّرين الهولنديين، المفكّرون الأحرار من الإنكليز وشرّاح العهد القديم بناءً على معطياتٍ مستوحاةٍ من حياة الشّعوب. تكوّن سملر (Semler) وميكايليس (Michaelis) في كنف العشرة معه وبمشاركة أعماله. ولقد كان ميكايليس أول من أجرى حدساً تاريخيّاً موحّداً للغة، وللتّاريخ، للطّبيعة وللحقّ على تأويل العهد القديم. أمّا سملر، السّابق على العظيم كريستيان باور (Bauer Christian)، فقد انتقض الوحدة التي لقانون العهد

22- Auslegung.

23- die grammatische Interpretation.

24- Psychologische.

25- Technische.

26- Automat.

الجديد، وبيّن المسألة الحقيقيّة التي تقضي بأن يُفهم كلّ كتابٍ بعينه بناءً على صبغته المحلية، ثم يجمع هذه الكتب من بعد ذلك في وحدة جديدة كامنة في تصوّر تاريخيٍّ حيٍّ للخصومات الأولى بين المسيحية اليهودية وبين النصارى من المعتدلين، لقد حرص في كتابه [**توطئةٌ للهرمينوطيقا اللاهوتية**] Vorbereitung zur Hermeneutik theologischen بعزيمة شديدة على الرّجوع بهذا العلم كلّه إلى قسمين: التّأويل اعتماداً على الاستعمال اللغويّ وعلى الظّروف التاريخيّة. بهذه المثابة اكتمل تحرير التأويل من العقيدة[27]، وتأسّست المدرسة النّحوية-التاريخيّة. أمّا الفطرة الفائقة والبصيرة اللتان طبعتا روح أرنستي (Ernesti) فقد جادتا بكتاب [**الأصول لمفسّر العهد الجديد**] Interpres الذي صار الأثر الكلاسيكي لهذه الهرمينوطيقا الجديدة. ولقد استفاد شلايرماخر أيضاً في بناء الهرمينوطيقا التي وضعها من قراءته. فكذلك حصلت هذه التطوّرات فعلاً في نطاق حدودٍ مضبوطةٍ. وقد وقع بين أيدي هؤلاء المفسّرين التأليف والبنيان الفكريّ لكلّ مكتوبٍ من أيّما عصر من العصور، ورُدّ إلى نسيجه الذي قُدّ منه بعينه: أفق التمثّل المقيّد بظروف المكان والزّمان. بناءً على هذا التصوّر البراغماتيّ للتّاريخ، صارت الطّبيعة البشريّة وقد استوت هيئتها من الناحية الدّينية والأخلاقيّة غير مقيّدة إلا بما هو خارجيٌّ من المكان والزّمان. إنّها غير تاريخيّةٍ.

إلى هذا الحدّ سارت الهرمينوطيقا الكلاسيكيّة ونظيرتها الكتابيّة جنباً إلى جنبٍ. ألا يجدر أن نرى فيهما تطبيقاً لهرمينوطيقا عامّة؟ تلك هي الخطوة التي أقدم عليها ماير (Meier)، وهو من أتباع المذهب الفولفي، في كتابه [**مقالةٌ في فنّ التّأويل العامّ**] (Versuch einer allgemeinen Auslegungskunst) لسنة 1757. لقد أنجز فعلاً تصوّراً لعلمه بأقصى قدر من العموم؛ حيث كان عليه أن يضع القواعد التي تلزم مراعاتها لكلّ تأويل للعلامات. غير أنّ مصنّفه قد بيّن، زيادةً على ذلك، أنّه ليس في ميسورنا أن نصطنع علوماً جديدةً بناءً على وجهات نظر العمارة والتّناظر. فإنّا بذلك لن يكون لدينا غير نوافذ عمياء لا يكاد يبصر منها أحدٌ. إنّ هرمينوطيقا فاعلة بقوّة ليس لها أن تلتئم إلا في عقل جامع بين مهارة التّأويل الفيلولوجيّ وبين ملكةٍ فلسفيّةٍ أصيلةٍ. ذاك هو شلايرماخر (Schleiermacher).

**.4**

كانت الظّروف التي عمل فيها: من تأويل فينكلمان (Winckelmann) للأعمال الفنّية، والاستشعار الحدسي العبقري [327] لروح العصور والشّعوب عند هردر (Herder)، والفيلولوجيا الواقعة تحت لواء المنظور الجمالي الجديد عند هاين (Heyne) وفريدريش أوغست فولف وتلامذته، ومن بينهم هايندورف (Heindorf)، الذي كانت تجمعه بشلايرماخر في الدّراسات الأفلاطونيّة عشرةٌ حميمةٌ؛ كلّ أولئك اقترن عنده بالطّريقة التي سلكتها الفلسفة الترنسندنتالية الألمانيّة، التي كانت تقضي بالرّجوع وراء المعطيات التي

27- Dogma.

في الوعي إلى ملكةٍ خلّاقةٍ فاعلةٍ بصورة موحّدة، وإن كانت غير واعيةٍ، وهي التي تنشئ فينا صورة العالم بأسره. ولعلّه بفضل الرّبط بين هاتين اللحظتين نشأ عنده فنٌّ خاصٌّ للتأويل وللتأسيس النهائيّ لهرمينوطيقا علميّة.

كانت الهرمينوطيقا إلى ذلك الحدّ، في أحسن الأحوال، بنياناً من القواعد، أجزاؤها وقواعدها الجزئية يُصار إلى تجميعها بغرض إقامة تأويل ذي صلاحيّةٍ كلّيةٍ. وقد تم الفصل داخل سيرورة التأويل هذه بين مختلف الوظائف التي تسهم في تكوينها، من حيث هي لسانيّةٌ وتاريخيّةٌ وجماليّةٌ-بلاغيّةٌ ومادّيّةٌ. ولقد بلغت الوعي، بعد قرون طويلةٍ من المهارة الفيلولوجيّة، بالقواعد التي يتعيّن على هذه الوظائف اتّباعها. إنّ شلايرماخر قد عاد فيما وراء هذه القواعد إلى تحليل للفهم، ومن ثَمّ إلى المعرفة بهذا الفعل الغائيّ نفسه، وقد استنبط منها إمكان تأويل يتمتّع بصلاحيّةٍ كلّيةٍ، وكذلك الوسائل والحدود والقواعد التي يختصّ بها. غير أنّه لم يكن بمقدوره أن يبيّن أنّ الفهم إنّما يرجع إلى إعادة الإنتاج[28]، وإعادة البناء[29]، إلا اعتماداً على تحليل علاقته الحيّة بسيرورة الإنشاء الأدبيّ نفسها. ولقد أقرّ في الحدس الحيّ للسّيرورة الخلاقة، التي يتولد عنها الأثر الأدبي المتين، بالشّرط الذي تتقوّم به معرفة هذه السّيرورة الأخرى التي تفهم انطلاقاً من جملةٍ من العلامات المكتوبة أثراً مكتملاً، ومنه قصدَ مؤلفه ومزاجه.

ومع ذلك، فقد احتيج إلى حدس سيكولوجيٍّ-تاريخيٍّ جديد قصد حلّ المشكل الذي طُرح بهذه الصّورة. فانطلاقاً من الرّباط القائم بين التّأويل الإغريقيّ وبين البلاغة، من حيث هي صناعةٌ ذات شكل خاصٍّ من أشكال الإنشاء الأدبيّ، اتّبعنا العلاقة التي يختصّ بها الأمر في هذا المقام. غير أنّ تصوّر كلتا السّيرورتين قد بقي دوماً تصوّراً منطقيّاً-بلاغيّاً. فالمقولات التي تقوّمت بها قد كانت دوماً مقولات الفعل والتّرابط والتّرتيب المنطقيّين، ومن بعد ذلك توشية هذه المحصولات المنطقيّة بحلية الأسلوب ومحسّنات القول والصّور. على أن الأمر قد آل منذ ذلك الحين إلى تطبيق مفهوماتٍ جديدةٍ تماماً من أجل فهم إنتاج أدبيٍّ. هاهنا صار لدينا ملكةٌ فاعلةٌ بنحو موحّدٍ وخلاقٍ، لا وعي لها لا بفعلها ولا ببنائها، [328] شأنها أن تتلقّى الإيحاءات الأولى لأثرٍ ما وأن تشكّلها. فلا فصل عندها بين التّلقّي وبين البناء التّلقائيّ. تُتلمس الفردانيّة[30] هاهنا إلى حد أطراف الأنامل ودقائق الألفاظ. أمّا تعبيرها الأعلى فهو الشّكل الداخليّ والخارجيّ للأثر الأدبيّ. ثم تأتي بإزاء هذا الأثر الحاجة المتلهّفة لتكميل الفردانيّة الخاصّة بحدس الغير. هكذا يكون الفهم والتأويل على حال اليقظة والنّشاط باستمرار في الحياة، فلا يبلغان ما ينبغي لهما من التّمام إلا في تفسير فنّيٍّ لأعمال مغمورةٍ بعنفوان الحياة ولاتّصالها بروح مؤلّفها. كان ذلك هو الحدس الجديد كما اتّخذ صورةً مخصوصةً في روح شلايرماخر.

28- Nachbilden.

29- Nachkonstruieren.

30- Individualität.

على أن هذا النجاح العظيم في تكوين هرمينوطيقا عامة قد لقي ظرفاً مناسباً مفاده أنّ الحدوس السيكولوجية-التاريخية الجديدة التي لمعاصري شلايرماخر وله هو نفسه إنما تمّ تجويدها لتصير فنّاً فيلولوجيّاً للتّأويل. فمع شيلر (Schiller)، وفلهلم فون هومبولدت (Humboldt Wilhelm von)، والأخوين شليغل (Schlegel)، انصرف الروح الألماني عن الإنشاء الشّعريّ إلى تدارك العالم التّاريخيّ بالفهم[31]. لقد كانت حركةً قويّةً. بوك (Boeckh)، ديسن (Dissen)، فالكر، هيغل (Hegel)، رانكه (Ranke)، زافينيي (Savigny)، كلّ أولئك تأثّروا بها. أمّا فريدريش شليغل فقد صار معلّم شلايرماخر في الفنّ الفيلولوجي. وقد كانت المفاهيم التي يستهدي بها في أعماله اللامعة في الشّعر الإغريقيّ، في [أدب] غوته (Goethe)، وبوكاتشيو (Boccaccio)، متعلّقةً بالشّكل الدّاخليّ للأثر، وبالتطوّر التاريخيّ للمؤلّف وبالمجموع المركّب للأدب. وفي نظره، إنّ وراء مثل هذه العمليّات الجزئيّة لفنٍّ فيلولوجيٍّ بنائيٍّ يكمن مشروعُ لعلم بالنّقد، علم نقديّ (critica ars)، شأنه أن يقوم على نظريّةٍ في الملكة الأدبيّة المنتجة. وإنّه لمشروعٌ شديد الشبه بالهرمينوطيقا والنّقد لدى شلايرماخر.

أمّا مشروع ترجمة أفلاطون (Plato) فقد تأتّى له من شليغل أيضاً. ففنّ[32] التأويل الجديد قد تكوّن انطلاقاً منها، وهو الذي تم تطبيقه أول الأمر على بنداروس (Pindar) من جانب بوك وديسن. إن أفلاطون يتعين فهمه بوصفه فيلسوفاً فنّاناً. أما الغرض من تأويله فهو بيان الوحدة بين خاصية التفلسف الأفلاطوني وبين الشكل الفني لأعماله. هاهنا لا تزال الفلسفة من نسغ الحياة مختلطةً بالحوار، وما بسطها بسبيل التّدوين غير تثبيتٍ لغاية الحفظ. ولذلك كان عليها أن تكون حواراً، بل أن تتخذ بالفعل شكلاً فنّيّاً فائقاً حيث يتيسر إعادة إنشاء ما تحمل من ترابطٍ فكريٍّ حيٍّ. بيد أنّ كلّ محاورةٍ يلزم أن تكون في الآن نفسه، وفقاً للوحدة المحكمة للفكر الأفلاطونيّ، قادرةً على متابعة ما سبق، وأن تمهّد لما يلحق وأن تتولّى نسج خيوط سائر أجزاء الفلسفة. فإن نحن اتّبعنا [329] هذه العلائق التي بين المحاورات، نشأ منها انتظام الأعمال الكبرى، الذي يكشف عن القصد الدّفين لأفلاطون. وإنّ أخْذَ هذا الانتظام المؤلّف بسبيل فنّيٍّ هو الذي يحصل منه وحده الفهم الحقيقيّ لأفلاطون في تقدير شلايرماخر؛ حيث يكون بالنّظر إليه تثبيت التّرتيب الكرونولوجي لعمله، حتى ولو كان مطابقاً في غالب الأحيان لهذا الانتظام، غير ذي قيمة تُذكر. ولقد بلغ بوك التّصريح، في مراجعته الشهيرة، بأنّ هذا الأثر العمدة قد جعل أفلاطون أخيراً في متناول العلم الفيلولوجيّ.

إلا أنّ هذه المهارة الفيلولوجيّة قد كانت متّحدةً للمرة الأولى في روح شلايرماخر بملكةٍ فلسفيّةٍ عبقريّةٍ. والحق أن هذه الملكة قد تكوّنت في مدرسة الفلسفة الترنسندنتاليّة، التي وفّرت للمرّة الأولى الوسائل الكافية لبسط المشكل الهرمينوطيقي وحلّه بشكل عامّ: فكذلك نشأ العلم العامّ بالتّأويل ونظريّته الصّناعيّة.

---

31- Nachverständnis.

32- Technik.

بقراءة كتاب [**الأصول**] Interpres لأرنستي أمكن لشلايرماخر في خريف 1804 أن ينجز الصّياغة الأولى، حيث أراد أن يستخدمه لافتتاح سلسلة دروسه حول الشّرح في هالّه. أمّا الهرمينوطيقا الحاصلة بهذا النّحو فلم تكن لتتّخذ غير صورةٍ شديدة النّقص. ولعلّ الفضل يرجع بوجهٍ خاصٍّ إلى بوك، أحد تلامذة شلايرماخر من عهد هالّه، الذي بثّ تأثيرها من خلال الصّفحات الرّائعة التي عقدها لها في دروسه حول الموسوعة الفلسفيّة.

إنّ تصفّح هرمينوطيقا شلايرماخر يجعلنا نستخرج منها القضايا التي يرتبط بها في نظرنا تطوّرها اللاحق. ذلك أنّ كلّ تفسير لآثار مكتوبة ليس غير تطوّرٍ فنّيٍّ لسيرورة الفهم التي تطال الحياة برمّتها وتتعلّق بضروب الخطاب والمكتوب كافةً. أمّا تحليل الفهم فهو من ثَمّ أساسٌ لوضع قواعد التّأويل؛ الذي لا يمكن استيفاؤه إلا من جهة علاقته بتحليل الآثار الأدبيّة المكتوبة. وعلى أساس هذه العلاقة التي بين الفهم والإنشاء يتيسّر لنا تأسيس الاتّساق بين القواعد التي شأنها أن تضبط أدوات التّأويل وحدوده.

أمّا إمكان تأويل يتمتع بصلاحيةٍ كلّيةٍ فيجوز اشتقاقه من طبيعة الفهم. ففردانيّة المؤوّل وتلك التي للمؤلّف لا تتعارض فيه كلّ التعارض كأنهما واقعتان لا يمكن المقارنة بينهما: كلتاهما تشكّلت بناءً على القاعدة العامّة للطّبيعة البشريّة، الأمر الذي مكّن لاجتماع الناس فيما بينهم بالحديث والفهم. ولعلنا نوضح في هذا المقام أحسن توضيح العبارات الصورية لشلايرماخر بطريقة نفسية. ذلك أنّ كلّ الفوارق الفرديّة لا ترجع في آخر المطاف إلى اختلافاتٍ كيفيّةٍ [330] بين الأشخاص، وإنمّا إلى فوارق في الدّرجة مرتبطة بسيروراتهم النّفسيّة. ومع ذلك إن نقل المؤوّل على سبيل التجربة حياته الخاصّة إلى وسط تاريخيّ، أمكن له لحين من الوقت أن يشدد وأن يقوّي من بعض الظواهر النفسية، وأن يترك الأخرى وراء ظهره ويتولّى بذلك إعادة بناء الحياة الغريبة في نفسه.

فإن أخذنا الآن الوجه المنطقيّ لهذه السّيرورة في الاعتبار، وجدنا أنّه انطلاقاً من مختلف العلامات المحددة فقط بطريقة نسبية، يمكن لمجموع أن يُدرك اعتماداً على العون المستمرّ الذي تقدّمه المعرفة اللسانيّة والمنطقيّة والتاريخيّة. وإن عبّرنا بمعجمنا المنطقيّ قلنا إنّ هذا الوجه المنطقيّ للفهم يستند إلى تظافر الاستقراء وتطبيق الحقائق العامّة على الحالات الجزئية والمنهج المقارن. إن آكدَ المهمات تثبيتُ الأشكال الخصوصيّة التي تتّخذها العمليّات المنطقيّة هاهنا وما بينها من التّعلّقات.

هاهنا يظهر الإشكال المركزيّ لكلّ فنٍّ تأويليٍّ. فالأمر يتعلق بفهم جماع أثر مّا بناءً على مختلف الكلمات وما بينها من الروابط، والحال أنّ الفهم التامّ لِجُزءٍ يفترض فهم الكلّ أصلاً. إن هذا الدّور يتكرر فيما يخصّ العلاقة التي تجمع أثراً بعينه بمزاج مؤلفه وتطوّره، وهو يتردّد أيضاً في علاقة هذا الأثر الجزئي بجنسه الأدبيّ. أمّا من النّاحية العمليّة فقد تولّى شلايرماخر حلّ هذا الإشكال في مقدمة كتاب السياسة لأفلاطون

على أحسن وجه، ولي أمثلةٌ أخرى على هذه الطريقة عينها في الملحوظات التي دونها على دروسه في الشرح. [لقد كان يبدأ بنظرةٍ شاملةٍ في المخطّط شبيهة بقراءة سريعة، ثم يحيط بطريق التحسّس بالمجموع كلّه، ويفضّ المصاعب، ويقف متأملاً المواضع كافّةً التي تسمح بالبصر بالنّظْم. حينئذٍ فقط يبتدئ التأويل ابتداءً حقيقيّاً]. ونحن في هذا المقام نواجه بطريقةٍ نظريّةٍ الحدودَ التي من شأن كلّ تأويل، فلا يمكن له أن يستكمل مهمّته إلا إلى درجةٍ معيّنةٍ. ولذا، فإنّ كلّ فهم هو أمرٌ يبقى نسبيّاً لا محالة وليس له أن يكتمل أبداً. [إنما المفرد لا ينقالُ] Individuum est ineffabile

ولقد أنكر شلايرماخر أن تنحلّ سيرورة التأويل إلى تأويل لسانيٍّ وتاريخيٍّ وجماليٍّ وموضوعيٍّ مثلما ورث ذلك. ذلك أنّ هذه التفاريق لم تكن لتعني له شيئاً غير أنّ العلم اللساني والتاريخي والموضوعي والجمالي ينبغي أن يسبق التأويل، وأنه يمكن أن يؤثر في كل عمل[33] من أعماله. إلا أنّ سيرورة التأويل عينها لا يمكن أن تنقسم إلى أكثر من وجهين، هما [331] المتضمنان في الدراية بالخلق الروحانيّ الذي يتوسل العلامات اللغوية. التأويل اللساني الذي يعمد إلى النص فيتقدم من تركيب إلى تركيب إلى غاية التركيب الأعلى لجماع الأثر. والتأويل النفسيّ الذي يقضي بالانتقال إلى السيرورة الباطنية للخلق، ثمّ المضيّ بعد ذلك قُدُماً إلى الشكل الخارجيّ والداخليّ للأثر، والتوسع نحو تحصيل وحدة الأعمال التي للمؤلف من خلال مزاجه وتطوّره.

هاهنا نبلغ النّكتة التي أمكن فيها لشلايرماخر أن يصطنع قواعد فنّ التأويل بكفاءةٍ عاليةٍ. أمّا مذهبه في الشّكل الخارجيّ والدّاخليّ فهو الأساس، وكذا الملامح الأولى لنظريّةٍ عامّةٍ في الإنشاء الأدبيّ شأنها أن تتضمن أورغانون التاريخ الأدبي.

أما المطلوب الأقصى للمنهج الهرمينوطيقي فأن يكون فهمُ المؤلّف أحسن من فهمه لنفسه. قضيّةٌ هي النتيجة اللازمة عن مذهب الإبداع اللاواعي.

**.5**

فلننظُر في المحصّلة. إنّ **الفهم** ليس له أن يصير تأويلاً يبلغ صلاحيّةً كليّةً إلا حينما يكون في مواجهة صروح لغويّة[34]. ولمّا كان التّأويل الفيلولوجيّ في [مجال] الهرمينوطيقا مدركاً لطريقته ومسوّغاً لمشروعيّته، كانت الفائدة العمليّة لمثل هذا الميدان، مقارنةً بالمراس الحيّ، غير ذات قيمة تذكر، مثلما قال ذلك ف.أ. فولف عن حقٍّ. غير أنّه وراء هذه الفائدة العمليّة في شأن التأويل، يبدو لي أنّ له مهمّةً ثانيةً، أو لعلها **المهمّة**

33- Act.

34- Sprachdenkmalen.

**الكبرى**: أنّه قبالة التفشّي المستمرّ للتّحكّم الرّومنطيقيّ، وللذّاتيّة الرّيبية في مجال التاريخ، يتعيّن عليه أن يؤسّس الصّلاحيّة الكلّية للتأويل، التي يقوم عليها كلّ يقينٍ تاريخيٍّ، تأسيساً نظريّاً. إنّ هذا المذهب في التأويل، متى تمّ إدراجه في مساق نظريّة المعرفة والمنطق ونظرية المنهج التي لعلوم الرّوح، صار حلقة ربطٍ أساسيّةً بين الفلسفة وبين العلوم التاريخيّة، وعنصراً رئيساً في تأسيس علوم الرّوح.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021